العلم والاجتماع

رسالة المقتطف وأثره

لاسماعيل مظهر

أوقف الدكتور يعقوب صروف حياته على خدمة العلم ، متخذاً من المقتطف ، التي تكمل بهذا العدد سنيها الستين ، ميداناً لجولاته الواسعة ونظراته الثاقبة وجهوده المتواصلة . وإنما يدل على انهُ اوقف حياته على العلم ذلك الصبر الطويل والايمان الثابت بما سوف يكون للعلم من شأن في الشرق العربي ، في زمان كان كل ما حوله ظلام دامس ، وجهل مخيم ، وغفلة ضاربة بجرانها على كل نواحي الشرق ، عند ما ارسل من المقتطف اول شعاع من اشعة النور اخترق تلك الظلمات ، وكان ذلك منذ ستين سنة خلون ، حتى فارق هذه الحياة ، وهو مؤمن بقداسة الرسالة التي يؤديها لاهل جيله وللاجيال المقبلة ، إيمانه بها منذ ان بدأ العمل لها

ويكفي ان تلقي نظرة على الحالات التي قامت في الشرق في اواخر القرن التاسع عشر ، لترى ان الدولة العثمانية ، رجل اوربا المريض ، كانت على فراش الموت تنزع الروح نزعاً اليماً طويلاً ، ودولات اوربا من حولها كانهن نسوراً ينبشن جثة هامدة ، تقتطع منها الهبرة بعد الهبرة ، وتلتقم منها الجزلة بعد الجزلة ، والعالم العربي في سبات لاه عن كل ما هو قائم من حوله من شؤون الدنيا ، والجاسوسية تتخر في عظامه ، وسوء الحكم يعمل من اوصاله ، ويضرب في اصوله ، ضرب جبار قوي الاصلاب

قال كاتب تركي : « لقد عوّدنا ان نلقن باننا عبيد الملك ، ظل الله من فوق الارض ، وانا له ملك ومتاع . وهذا يتضمن ضرورة الاعتقاد بانهُ ليس عندنا من شيء يمكن ان يقاوم خليفة الله المتربع من فوق عرش الارض ، وانهُ لن يكون لنظام اجتماعي أثبت اصولاً من نظامنا ، ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا . بينما كانت الحقائق الملموسة توحي الينا كل حين بان في انحاء مملكتنا فقراً وجوعاً ، وان جزءاً بعد جزء من اطراف عاهليتنا يؤخذ عنوة ورغماً منا ، نهباً واغتصاباً . وكانت لنا حكومة هي أضعف من احط الحكومات الاوربية ، متردية في حمأة الرشوة ، مفككة الاوصال ، مضطربة الاحوال ، بعيدة عن حكم الشرائع والآداب »

في ظل هذه الحكومة نشأ يعقوب صرّوف فآمن بالعلم في بيئة كفرت به ، وآمن بالانسانية في محيط أنكرها ، وآمن بالعقل في ظل نظام لم يقم الا على الشهوات ، بل على أخس الشهوات .
وكان من الطبيعي ان لا يجتمع الايمان بشيء والكفر به في وسط واحد ، فاعتزلهم وهبط مصر، لحنة بحرياتها واوسعت المجال لكفاياته العليا ، فأفرغ في سبيلها كل ما أودعتهُ الطبيعة من قوة الروح وسلامة العقل وقوم الخلق ، وخلف لها من بعده تراثاً تتوارثهُ الاجيال ثم الاجيال

وفي ذلك الوقت قصر العلم في انحاء العاهلية العثمانية على ماكان يلقى بين جدران المساجد والتكايا من ضروب البدع التي دخلت الدين الاسلامي الحنيف ، وعكف الفقهاء وطلاب العلم على درس فروع من الفقه الاسلامي مانزل بها كتاب ولا جرت بها سنة ولا سلم بها عقل . كأن يدور الحوار بين الفقهاء مثلاً في ان بقرة ولدت عجلاً يتكلم وحفظ القرآن ، أيجوز أن يصلي بالناس جماعة يوم العيد ؟ وهل يصح ذبحه وأكل لحمه بعد أن يؤدي بهم هذا الفرض إماماً ؟

وفي جو هذه الظلمات التي تساقطت على العالم الشرقي كسفاً شديدة السواد ، اخذ المقتطف يبشر الناس بمذهب النشوء والارتقاء ويأخذ بضلع من الملحمة القائمة من حول نظرية النشوء ونظرية الخلق المستقل، وينقل آراء داروين وهكسلي ويناقش في آراء سنت جورج ميفارت مقاومهما العنيد وخصمهما الالدود ، وينتصر لنظرية النشوء والقول بان الانسان منحدر من صورة من البشريات احط من صورته التي تلابسهُ الآن ، والناس يرمونهُ بالكفر ويقولون بأن المقتطف انما يدعو الى القول بان الانسان اصله قرد ، على الضد مما تقضي به حقائق العلم ونظريات التطور نفسها ، ويشتد اللجاج بين الكتاب ويشمر السيد جمال الدين الافغاني عن ساعده ويمضي مبشراً بمذاهب خرقاء في العلم الطبيعي ويناقش في اشياء لا علم له بحقائقها ولا اتصال لثقافته بها ، ثم يتجلى البيان الذي يثيره عن أن رأس البرغوث اذا نظر من خلال مجهر ظهر كأنهُ رأس فيل ، فهل يدل ذلك على ان الفيل اصله برغوث تضخم وانتفخ ، ثم تدرج في التضخم والانتفاخ حتى صار فيلاً ! !

بمثل هذه الثقافة ، وبهذا القدر من الاستنارة ، كانت تناقش حقائق العلوم الحديثة التي يبشر بها المقتطف لاهل الجيل الماضي . وما كان الذين يعملون هذا العمل في مناقشات تدور حول نظريات حديثة ، تبناها الكثيرون من أهل اوربا بتحفظ شديد ، ان يكونوا يوماً من الايام عوناً على تحرير الافكار أو محاربة البدع أو صرف الناس الى متجهات جديدة تنقلهم من العقلية القديمة التي ورثوها عن قرون الظلامية القديمة Obscurantism بما فيها من تصوفية مريضة أو كلامية تقوم على الفروض الذهنية ، أو يعملوا يوماً على تقويم الخلق الانساني بما تقتضيه الانقلابات الفكرية والتصويرية التي خلقها العلم الحديث ، أو يدركوا ان لهذه العلوم اثراً في بحث حالات الاجتماع وتأثر الجماعات بمختلف ما في الطبيعة من مؤثرات

وكانت جماعات الشرق القائم في ذلك الحين ، قد انحلت روابطها الاجتماعية انحلالاً عظيماً ، ظهر أثره في خضوع هذه الامم لضروب الاستبداد الشديد والمظالم العتية التي انزلت بها اقسى ما يروي التاريخ من كوارث وملمات . واحاطت بها امم أوربا احاطة السوار بالمعصم ، تبث فيها دعايات مختلفات ، مكن لها ذلك الانحلال الاجتماعي ان تجد البيئة الصالحة للنماء والتمكن من طبائع اهل الشرق ، حتى لقد زين لاهل الرأي منا ، ان تلك الزخارف التي وصلتنا عن أوربا انما هي طريق الرقي والسداد ، وسبيل القوة والاستقلال ، في حين انها كانت العامل الذي قطع ما بيننا وبين ماضينا وحلّ آخر عقدة كانت تربطنا بثقافاتنا القديمة واخلاقنا القومية ، بعد أن عملت فيها يد الجمود ما عملت ، وبعد ان غشيها من غفلة الحكومات ما غشيها

وقد يتبادر الى البعض ان مظاهر الرقي الذي يبدُو في افق كثير من امم الشرق في هذا العصر انما يرجع الى الدعايات السياسية او الى التصيحات التي قام بها بعض اصحاب الوطنية الملتهبة على ما لهم فيها من فضل ، وما خلفوا فيها من أثر . ذلك بأن الدعايات السياسية في الامم المستضعفة لن تجد لها سبيلاً الى القلوب أو العقول ما لم يثم في الانفس والاذهان حالة تحفز الجماعات الى العمل لاسترداد ما فقدت والاستمتاع بما يستمتع به غيرها من الناس ، فان حياة الامم وقياسها من حيث الرقي أو الفساد ، انما يكون دائماً بقدر تصوراتها . واذن تكون مظاهر الحياة اشباحاً معكوسة في الخارج من مجمل ما يقوم في الذهنية الجماعية من تصورات . وعلى قدر هذه التصورات يكون الحافز الذي يحفزها الى العمل . ولا شكّ في ان التصورات تقوم على العلم بما هي الحياة، وكيف يجب ان تكون ؟ وعلى قدر العلم بالشيء تكون ماهية التصور الذي يقوم في الاذهان

وما كان لنا ان ننسى أن تصوراتنا القديمة قامت على اشياء بعدت عن العلم الطبيعي وعن علاقة الاحياء بالبيئة التي ينشأون متأثرين بعواملها . ولقد ظنّ الشرق العربي قروناً طوالاً يقيم تصوراته على ما تضمنت الكتب القديمة من نظريات وفروض ، بعدت عن الطبيعة ، بعد الطبيعة عن أن تكون على قدر تلك العقول التي وضعت تلك الكتب . فظلت شعوب الشرق واقفة والدنيا من حولها تدور ، وانطوت في داخل تلك الصدفة التي أحكم اغلاقها تصورات الذين اقفلوا في وجه هذه الامم باب الاجتهاد ، فأوصدوا على العقول ابواباً فولاذية ، اتخذوا من مشاعر الجماهير وتصورات الجماهير وسيلة لايصادها ، فنزلوا بالعلم وبالدين وبالاخلاق وبكل ما سمى وجلّ من معاني الحياة ، الى مستوى ما تسبح فيها احلام الجماهير واهل الجهل والغفلة من اصحاب النفوذ والامراء والملوك ، ابتغاء تحقيق ما رب دنيا ، واستجابة لنفسية مريضة سقيمة ، سوّدوها على كل فضيلة ، وضحوا لها بكل معاني البر والتقوى

ولقد تناصرت على شعوب الشرق كل القوى التي كان من الواجب ان تأخذ بيدها : ملوكها

وامراؤها وحكوماتها والمسيطرون على الثقافة فيها . لهذا ترى ان قوة الدفع الى الهاوية كانت اعظم من أن تستقوى عليها شعوب مضللة مستعبدة اسلمت بأمور دنياها الى المستبدين ، وبأمور أخراها الى من لم يفكروا يوماً في ان يوحوا الى تلك الشعوب بأن لها ماضياً ، وان لها من العلم والادب والقوة تراثاً ، هو في الحياة سنادتها وعاصمها الذي ليس لها من عاصم سواه . ولقد ظلت هذه الشعوب القرون تلو القرون مستغنية لحكم المستبدين راضية بأن تهب وتستغل ، قانعة من الحياة بكسرات من الخبز وبوشل من الماء . فأي حافز ذاك الذي حفزها الى النظر في الحياة هذه النظرة الجديدة ، ووجهها هذا التوجيه الانساني ، وجعلها تنظر الى الحياة نظر المؤمن بأن لها فيها حقاً وان من حقها ان تفكر وان تكون حرة في تفكيرها وفي ان تختار من الحياة الوجه الذي يرضيها ؟ اي عصا سحرية ضربت تلك الشعوب تلك الضربة التي ايقظتها ونبهتها من سبات القرون المتطاولة ؟ لا شك في انها عصا العلم . فان العلم حر مطلق من القيود ، لا يؤمن الا بعد شك ، فاذا آمن كان ايمانهُ راسخاً وطيداً . هذا خلق العلم . وهذا هو الخلق الذي يغرسهُ الايمان الثابت بكل ما ينزل من العقل منزلة الاحترام والتقديس

ولقد كان من اثر ذلك ان شعوب الشرق قد تنبطت الى العمل الجدي في سبيل تنظيم العلاقة التي تقوم بين الحكومة والمحكومين على اساس العقل والمصلحة العامة ، وأخذت تقاوم النفوذ الفردي مقاومة ظلت في كل الحالات رهناً على الظروف . فظهرت حيناً في ثوب حركات اصلاحية ، وحيناً آخر في صورة ثورات اتجهت نحو تقرير حقوق مدنية وسياسية حرمتها الشعوب ازماناً طويلة . ومن شأن العلم ان ينظم العقل وينظم الشهوات وينظم المطامع . ذلك بأن العلم يقوم على حقيقة اساسية هي تنظيم العلاقات القائمة بين الحقائق تنظيماً يحدد لكل حقيقة منها موضعها الخاص الذي تشغله في نظام الاشياء . وعلى الجملة اخذ المصلحون القائمون على هداية هذه الشعوب ينظمون من الشؤون الاجتماعية والسياسية على مقتضى ما يقوم في عقولهم من تصور العلم وتنظيمه للعقل تنظيماً لا تضارب بين حقائقه ولا طغيان لناحية منه على اخرى . فظهر ذلك مكوساً في كل ما عملوا وسيظهر في المستقبل لابساً ثوباً جديداً من المرونة التي يمتاز بها الاسلوب العلمي ، على قدر ما سوف يكون للايمان بالعلم وأساليبه من اثر في حياة الجماعات

على اننا لا نقصد بذلك ان العلم اصبح المسيطر الاول على حالاتنا الاجتماعية ، أو ان كل المصلحين الذين قاموا في الشرق ومنهم اجتماعيون وسياسيون ، قد تفقهوا بفقه العلم الصحيح ، او ان الشعوب انفسها قد ركزت يقينها بالعلم على قاعدة عامة رشيدة . وانما جل ما نقولهُ أن انتشار الاسلوب العلمي في التفكير والادب ونشر الحقائق الثابتة التي توحي بها طبيعة الاشياء ، قد حوّل الفكرة في حق الشعوب من الحياة ، وزاد الضغط على الحكومات المستبدة ، فجعلها تشعر

بأن من الضروري ان تكيف موقفها ازاء المحكومين تكيفاً يتفق والاتجاه الجديد الذي اعتبت فيه العقول ، وجرت فيه الميول والعواطف ، اتقاء الارتجاج الاجتماعي والثورات الفجائية

وسوف تجد مؤرخ المستقبل ، اذا اراد ان يقف على الاسباب التي هيأت الظروف لظهور هذه المتجهات الحديثة ، انه امام مشاكل اجتماعية عميقة ، لا بدّ له من الاكباب على درسها من طريق العلم . على انهُ سوف يجد في علوم الاحياء وعلاقتها بالمسائل الاجتماعية مرشده الامين الذي ينير له سبيل البحث في الحركات السياسية والاجتماعية التي قامت في خلال نصف قرن كامل ، شمل جزءًا من القرن التاسع عشر، وجزءًا من القرن العشرين . ولسوف يرى أن تعليل الكثير من مظاهر التطور الاجتماعي التي حدثت في مدى هذه الفترة ، مستطاع من سبيل واحد ، هو الاكباب على درس المبادىء التي قررها العلم في عقلية الجماعات وفي علم النفس التحليلي والاجتماعي

على ان الشرق ان اراد ان يخطو الى الامام خطوات واسعة في سبيل الارتقاء الحقيقي وان يضرب في معارج التطور الثابت نحو حالات اسعد وأفضل ، فان من واجبه ان يجعل السياسة تابعة للعلم الاجتماعي ، القائم على حقائق العلم الطبيعي . فان السياسة في الشرق قد قامت الى الآن على نظريات بعيدة عن الاسترشاد بهدى العلم ، ومضت تخبط في دياجير مظلمة من التقديرات والاعتبارات التي تقوم على غير اساس وطيد الدعائم من حقائق العلم . وكل سياسة لا تقدر العلاقة القائمة بين المتجهات التي تلوح في افق الحياة الاجتماعية وحقائق الطبيعة الخفية من ورائها ، انما هي سياسة مرجحة غير ثابتة ، سياسة لا تؤمن معها العثرات ، ولا تسلم من الكبو والشطط

فلا بدّ اذن من ان نربط بين السياسة وبين العلم ، وان نحكم الصلة بين السياسة وبين منهج اجتماعي تتخذه اماماً تأتمّ به السياسة في الاصلاح المدني . غير ان الطريق الذي مضت فيه اكثر امم الشرق حتى الآن ، لم يدل بعد على ان هذه الحقيقة قد اتخذت مكانها اللائقة بها من عقول السياسيين والمصلحين . ودليلنا على هذا أن سياسة اكثر حكومات الشرق قد فقدت صفة اولية تجعل تنفيذ هذا المطلب ممكناً، وتلك هي صفة الاستمرار . ومن أصعب الاشياء ان يكون للعلم أثر في بيئة تتقلب بها الاهواء ، وتتقلب فيها دورات الحظ بين ساعة واخرى . وفقدان صفة الاستمرار في سياسة أكثر الحكومات الشرقية هو السبب الاول فيما يقوم اليوم من مظاهر الانحلال الاجتماعي والترنح الذي نستشعره ماثلاً في الاماني والاحلام التي تساور افق الشباب . ذلك بأن الاستمرار انما هو اتباع طريق مرسوم للاصلاح الاجتماعي يرمي الى غاية معلومة . فاذا فقدت السياسة هذه الصفة ، فقدت اعظم مثادة تمكنها من تخليف الآثار التي يستطاع من طريقها خلق حالات ثابتة ونظامات مستقرة ترضي مطامع شعوب استحدث الاسلوب العلمي في عقلياتها

طابعاً جديداً ، ووسمها بسمة لا عهد لماضيها بها ، وجعلها تنشد في الحياة غايات سامية ومثلاً عليا

وقد يتبادر الى ذهن اولئك الذين أخذهم اليأس من إصلاح أمم الشرق أن ما نتكلم فيه لا يخرج عن نظريات قد يكون في تطبيقها ما يدل على انها أحلام بعيدة التحقيق . والحق انها تكون أحلاماً بعيدة التحقيق ، إذا نحن لم نؤمن بأنها طريق الخلاص الذي لا طريق سواه . فان الجماعات الانسانية باعتبارها كائنات حية من ناحية ، وباعتبارها كائنات ذات نظام اجتماعي من ناحية اخرى ، قد تصدق عليها حقائق علوم الاحياء منطبقة عليها تطبيقاً خاصاً ، كما تصدق على بقية الاحياء الاخرى . ولا اخال ان مفكراً متزن التقدير ينكر ان اتخاذ اسباب العلم وسيلة للاصلاح الاجتماعي ، هو السبيل التي تؤدي بأمم الشرق إلى وضع قواعد ثابتة تنتحيها في التدرج نحو مثلها العليا

على ان من الواجب ان نعي ان لكل جماعة من الجماعات فطرة خاصة وبيئة بعينها ، وان لها مزاجاً عاماً هو نتاج الوراثة الطبيعية والعادات . اما إذا كانت حقائق العلم الطبيعي قد تصدق على كل الاحياء من حيث القواعد والاسس والنواميس ، فإن درس الحالات التي تقوم في كل امة من الامم من ناحية هذا العلم ، يجب ان تعتبر فيها الفطرة والبيئة والمزاج ، حتى يستخلص المصلحون اقوم طرق التطبيق وينتزعوا من حالة كل شعب ما هو في احتياج اليه من ضروب الاصلاح ، ويلمسوا الحاجات الاولية التي يمكن ان تتخذ فيها حقائق بعينها من حقائق العلم سبيلاً الى معرفة ماهياتها . وهذا ما جرت أكثر امم الشرق على عكس ما يوحي الينا به . فقد مضت هذه الامم تسترشد باوربا ، وتتخذ من حالات اوربا قياساً تقيس عليه حالات الشرق ، من غير ان تعير الطبع الشرقي والمزاج الشرقي والبيئة الشرقية أدنى التفات . ومن أعجب الاشياء انا مضينا ننقل عن أوربا ثمار تطبيقها لحقائق العلم في نواح يجب علينا ان نراعي فيها مزاجنا الخاص وبيئتنا الخاصة ، وعزفنا عن ان ننقل عنها تجاريبها في مسائل تصدق على كل البيئات وفي كل الاحوال . ومثلنا على ذلك انا نقلنا مثلاً شرائع بعينها عن اوربا لا علاقة لها بطبعنا ولا حاجة لبيئتنا بها ؟ وكذلك نقلنا عن أوربا طرقاً خاصة في التعليم من غير ان نراعي فيها مقدار ملاءمتها لفطرتنا او ثقافتنا التقليدية

ان ما مضيت فيه من اوجه البحث في هذه العجالة القصيرة فيه بشير ونذير . أما البشير فانا بدأنا نتجه في تحليل حالاتنا الاجتماعية ودرسها اتجاهاً علمياً . واما النذير ففي انا لم نضع بعض مناهج إصلاحية ، قائمة على العلم ، لماصفة الاستمرار والبقاء . والمحصل ان الاصلاح الاجتماعي في امم الشرق ، ينبغي ان يعهد به الى علماء اتصلوا بعلوم الاحياء وعلوم الاجتماع ، تلك العلوم التي كان للمقتطف الفضل الاول في توجيه العقول اليها وبث مبادئها في قلوب المفكرين